

إستراتيجيات الحوار في الخطاب الديني والعلماني الحوار التلفزيوني بين إبراهيم الخولي ووفاء سلطان -أنموذجا -

أ. نبيل محمد صغير
جامعة تيزي وزو

تجسّد خطاب الصراع بين التيار الفكري الديني والتيار الفكري العلماني منذ القديم¹ في جميع الثقافات والديانات المختلفة، فاستعمل كل طرف منهما استراتيجيات للدفاع عن رؤاه وحججه بالنظر إلى الإطار الإدراكي الذي تجسد فيه هذا الصراع، فقد كان هذا الأخير يجري على صفحات الكتب، بحيث نعثر على مؤلفات ومراجع خاصة لهذا الشأن؛ فكانت هنالك سمات معينة تميّز الحوار الفكري بين الدين والعلمانية في إطار الثقافة الكتابية. وعلى سبيل المثال، في نسبة حضور المتلقي، الذي هو مغيب في الثقافة الكتابية، إلى حدّ معين، مقارنة بالثقافة التلفزيونية التي تعطيه الدور المركزي في فهم الحوار وتحليل مضموناته وإدراك استراتيجياتها وتأويلها. هذا من جهة أولى، أما من جهة أخرى، فالثقافة التلفزيونية قد أعطت أبعادا جديدة: (فكرية، وسياسية، واجتماعية) لهذا الصراع، سنحاول الكشف عنها في بحثنا هذا.

إذن، لا يروم بحثنا هذا التنقيب عن خصائص الخطاب الديني مع غريمه العلماني في إطار هذا المجال التقليدي (الكتابي) الذي برز وتطوّر فيه، وإنما تروم البحث في خصوصيات الحوار الديني العلماني المعاصر في أبرز مصادره ومنابره، وقد اخترنا الخطاب التلفزيوني لكونه يمكّننا من مشاهدة الخطاب في سياقه العام والكلي الذي يدور فيه، مما يتيح لنا جانبا مهما في صناعة المعنى وفهم أساسيات المحاجبة لدى المتحاورين أثناء الدفاع عن رؤاهم المؤطرة عبر خلفيات أيديولوجية معينة ساهمت في بلورة بنيتي الخطاب والحوار.

ومن ثم، سنعمل على تحديد معالم وخصوصيات الخطاب الديني- العلماني على مستوى وسيلة من وسائل الإعلام الأساسية، رغبة منا في إبراز معالم الاختلاف في توظيف الاستراتيجيات الحوارية والحجاجية المستعملة في هذا النوع من الحوارات الفكرية والدينية، مقارنة مع معالم الخطاب وبدائله البرهانية في صيغته المكتوبة.

سيكون تحليلنا لهذه المدونة التلفزيونية معتمدا على مقارنة لسانية تداولية-تواصلية؛ بحيث تحاول الكشف عن آليات الحوار الافتتاحي (Les Mécanismes conversationnels)، وعن مستويات الحجاج داخل ذلك الحوار عبر تحليل الأفعال الكلامية المستعملة فيه، في تفاعلها الكلي، وفي تحولاتها الجزئية، نحو النزاع والمشاحنات اللفظية بين المتحاورين، عبر فهم خصوصيات الخطاب الديني عبر أمين الخولي، وفهم خصوصيات غريمه العلماني عبر خطاب وفاء سلطان، ومحاولة الكشف عن الأفعال الكلامية المشكلة للمنظومة الحجاجية التي يقتضيها السياق والموضوع المتحاور فيه، وكذلك، الخوض في خصوصيات بلاغة الصورة والجماهير.

1-1- حجاجية الافتتاح وتأثيره على الموسوعة الحجاجية

للمتكلمين والمتلقين/ الجماهير²: إن الحوار الذي يدور في إطار الاتجاه المعاكس يهدف في أهم مراميهِ " إلى نتائج فكرية وتوجيهية هامة، وذلك بالنظر إلى أن إبداء الرأي المعاكس للرأي الآخر، من طرفين مختلفين في تكوينهما المعرفي والعقدي والفكري، سيؤدي حتما إلى تنافس تلك الأطراف في إبداء أحسن الآراء لاستمالة أكبر عدد من الشرائح المستهدفة من الجمهور، مما يؤدي إلى تطور متنام لموضوع الحوار من جهة، وتزايد وتيرة الإقناع من طرف المتتبعين من جهة أخرى³. لهذا سنعمد مباشرة إلى تتبع تطور مستويات الحوار من ناحية حجاجيته وإقناعه عبر تقسيمه إلى ملفوظاته الرئيسية.

1-1- حجاجية الحوار وارتفاع سلم البراهين وسبل انفلاتها: بيندئ

فيصل القاسم حوارهِ الموجه لوفاء سلطان بسؤال مؤسسا له بمجموعة من المعطيات والأحداث الواقعية تشكل مجموعة من الأفعال الكلامية الإخبارية التي سبقت السؤال (الفعل الإنجازي) الموجه إلى المتلقى وفاء سلطان خصوصا، والعلمانيين عموما.

يقول فيصل القاسم في ما معناه : على ضوء الأحداث الأخيرة، وعلى ضوء الضجة الكبيرة التي تحدث في أوروبّا فيما يخص الإسلام، إنه صراع الحضارات الذي بشر به هنتجتون، إنها الحملة الصليبية التي أعلن عنها جورج بوش الصغير عقب أحداث سبتمبر؛ والتي تشترك فيها تلك الدول بأشكال متنوعة، فمنهم من يغزو البلاد ويعيث فيها فسادا وقتلا وتدميرا ونهباً (أفغانستان والعراق) مثالا... وآخرون يقمعون حرية مسلمي تلك البلاد الغربية في إقامة الشعائر الإسلامية ويصدونهم عن الالتزام بالإسلام.. وآخرون يتدخلون في شؤوننا.. وآخرون يستهزؤون بالإسلام ورسوله كم يحدث في الدنمارك وغيرها⁴.

إنّ الدلالة التي تشكلها مجموعة من الأفعال الكلامية الإخبارية حين تتضافر فيما بينها، تكون في الأساس مشكّلة عبر فعل كلامي كلي جامع لها بمفهوم فان دايك، ولعل هذا الفعل الكلي في هذا الخطاب يتجسد في ملفوظ: "إنه صراع الحضارات الذي بشر به هنتجتون، إنها الحملة الصليبية التي أعلن عنها جورج بوش الصغير عقب أحداث سبتمبر"، إذ يحمل هذا الملفوظ دلالة الفعل الكلامي الوصفي / الإخباري / الإثباتي في تقديم الخبر وإثباته. أما قوته الإنجازية التي يحملها فهي التأكيد على أن ما يحدث في العالم ليس اعتباطيا وإنما هو نتيجة لمجموعة من التحولات الحضارية والدينية؛ إذ يلعب هذا الأخير حسب فيصل القاسم الدور الأكبر في هذا الصراع، وهذا بارز في الفعل الكلامي الجزئي -والذي بدوره يندرج في إطار الفعل الكلي- الذي استعمله في ملفوظ: "... وآخرون يقيمون حرية مسلمي تلك البلاد الغربية في إقامة الشعائر الإسلامية ويصدونهم عن الالتزام بالإسلام ..."⁵، وإذا حاولنا أن نموضع هذا الفعل الكلامي ضمن التقسيم الخماسي الذي قدّمه أوستين، فسندرجه في صنف العرضيات التي يعرفها أوستين بأنها التي: "تندرج في مجرى المحاجة أو المحادثة.... بمعنى آخر، هي التي تسمح بالعرض فيما يلي هذه الأمثلة: "أبرهن، أسلم، أظنّ أنه من الثابت، أ طرح كمسلمة"⁶ إذ ربطه لمفهوم الحرية بإقامة الشعائر الدينية يقدم لنا فعلا كلاميا ذا قوة إنجازية (الدفاع عن قضية) هي أن الإسلام يحارب من قبل الغرب وأن المسلمين يُنتزع منهم حقهم الأساسي في الحياة وهو التمتع بممارسة الشعائر الدينية والتقرب من الله.

يواصل فيصل القاسم في الدفاع عن فعله الكلامي الكلي؛ البؤرة بمفهوم سيمون دايك+، في عرضه لنتائج الاستفتاء الالكتروني الذي يقول فيه أن 81% من المصوتين يرون أن العالم يتجه نحو صراع للحضارات وأن 19 % يقولون ب: لا⁷. وهذا النوع من الحجج لا يقبل النقاش أبدا من منظور الباحث محمد العمري.

عند طرح فيصل القاسم الفعل الكلامي الإخباري الذي يُختار ويُنتقى، دائما، عكس الاتجاه الذي يؤمن به من هو موجه إليه، لهدف استثارته وحمله على تقديم حجج وأدلة تدعم اتجاهه الفكري، وتنفي ما يقول به المقدم الذي دائما ما يكون عكس الاتجاه الذي يكون في المُستضافين حيث يتقمص فكرهما بالتناوب باستمرار. قلنا عندما يطرح فعله الكلامي الإخباري المشكل من أفعال كلامية جزئية ينتقل إلى عرض فعله الكلامي الجزئي الإنجازي، إذ يقول: كيف ترددين؟ وهو هنا يحمل قوة الاستفهام عن كيفية الرد على هذه المعطيات،

ويحمل، كذلك، على جعل الآخر/ المُحاور في وضعية المدافع عن أطروحته المنتقدة.

بعد فعل كلام الشكر الذي تقدمه المحاور وفاء سلطان للمشرفين على البرنامج و المنشط وفعل كلام التمني بالاستفادة ورجاء حصول المتعة من الحوار، وهذا هو في الغالب المبدأ الذي يسر وفقه الحداثيون وما بعد الحداثيون الذين يؤكدون على مبدأ الاختلاف في التعبير والأفكار وحرية الاعتقاد ونبذ الخلاف لمجرد الاختلاف، وسنرى هل تجلت هذه المقولات في سيفسء الخطاب الذي شكّلته وفاء سلطان؟

تقدّم وفاء سلطان مجموعة من المعطيات والمفاهيم، قبل الإجابة عن فرضية وجود صراع حضاري أو ديني من عدمه، وقد بنت هذه المعطيات عبر تحديد لمجموعة من المفاهيم عن طريق طرح أسئلة ترتبط بها، من قبيل⁸:

✓ ما هو الدين ؟

✓ ما هي الحضارة ؟

✓ وهل يلتقيان ؟

تمثل هذه الأسئلة أفعالا كلامية إنشائية / إنجازية⁹ لأنها تقوم ببناء مجموعة من المسلمات والمنطقات (أفعال يؤسس عليها العقل استدلالته).

تقدم وفاء سلطان مجموعة من الأفعال الكلامية التي تؤسس عليها حججها، فتقول: "إن الدين هو مجموعة القيم والمثل والمبادئ التي تنظم العلاقة بين الإنسان والقوة الإلهية التي يؤمن بها، ويفترض ألا تتجاوز حدود تلك العلاقة"¹⁰ إن هاته الإجابة التي قدمتها منسجمة مع القضية التي تدافع عنها وفاء سلطان؛ وهي ضرورة علمنة المجتمع وعزل الدين عن التعاملات الاجتماعية وقصره على تلك العلاقة الإلهية – البشرية لا غير. ولهذا الغرض فقد خصصت مجموعة من الأفعال الإخبارية ذات قوات إنجازية مختلفة تحيل في الغالب إلى دلالة أو معنى أو فعل تتجاوز العلاقات الاجتماعية عبر الوسيلة / البراديغم الديني، كما هو الحال في العالم الديني¹¹ – غير العلماني. لعل الفعل المتضمن في هذا الملفوظ يحيلنا إلى الفهم العلماني المعتاد للدين فهل سنجد هذا الفهم موظفا لدى وفاء سلطان فيما يلي من عملية الحجاج؟ أو الذي يتمثل في الكفاية الحجاجية المرتبطة بمجهود الإقناع¹²، لأن البعد الحجاجي يكون في اللغة كلما كان هدف الخطاب هو إقناع المستهدف بذلك الخطاب¹³، أم أنها ستقع في تناقض مع ماقالته عنه في تعريفها له ولماهيته؟

تقدم وفاء سلطان تعريفا للحضارة على الشكل الآتي: "هي درجة عليا من الرقي الاجتماعي نجمت عن التفاعل بين الفكر الحر والعمل الخلق

المتقن. عندما يصل الإنسان إلى تلك الدرجة يعيش حياته بسلام واحترام، ويكون بالتالي أكثر قدرة على الإبداع وأكثر قدرة على الإتيان¹⁴ إن القوة الإنجازية لمجموعة الأفعال الكلامية التي حواها هذا الملفوظ تحيلنا مباشرة إلى أن الحضارة أحسن من الدين، لأنها تمثل أعلى درجات الرقي الإنساني.

كما نلاحظ ذلك المدلول في هذا الفعل الكلامي الإخباري: "الحضارة نجمت عن التفاعل بين الفكر الحر والعمل الخلق المتقن؛ عندما يصل الإنسان إلى تلك الدرجة يعيش حياته بسلام واحترام، ويكون بالتالي أكثر قدرة على الإبداع وأكثر قدرة على الإتيان"¹⁵، إذ يحمل هذا الفعل الكلامي قوة إنجازية مفادها أن الحضارة لم تنتج عن اتباع الطريق / المنهج الديني في التعامل مع معطيات الحياة الاقتصادية والتكنولوجية، وإنما نتجت عن طريق وجود تماثل بين الفكر الحر؛ غير الدوغمائي والعمل الموسوم بالخلق المتزن، وإن كانت دلالة الخلق المتزن ترتبط في الأساس بالجانب الروحي الديني إلا أنها في سياق الحديث هنا لا تُربط بالجانب الديني بالمفهوم المتداول في العالم العربي وإنما بالمفهوم العلماني له. ينتج عن هذا الفعل الكلامي فعل تأثيري (acte perlocutoire) لدى المتلقي مفاده أنه لا يرتبط الجانب الأخلاقي فقط بالديني، بل يمكن أن يوجد كذلك في العالم العلماني.

لو تأملنا ودققنا في الملفوظات التي وردت بعد هذا الفعل الكلامي لوجدنا أنها منسجمة ومتسقة مع ماورد قبلها؛ منسجمة من حيث الروابط اللغوية المستعملة فيها (أما، فهي، نجمت عن، عندما يصل، تلك، بالتالي، ليس في الملفوظات الثلاث: "الإسلام / المسيحية / اليهودية ليس حضارة"¹⁶، أما الاتساق فهو الحاصل المنطقي عبر الروابط اللغوية.

توجه وفاء سلطان أربع ملفوظات تحسم بها توجهها الفكري وتضبط عبرها خلفيتها المعرفية والمفاهيمية، وهذه الملفوظات هي:¹⁷

- ✓ الإسلام ليس حضارة؛
- ✓ المسيحية ليست حضارة؛
- ✓ اليهودية ليست حضارة؛
- ✓ باختصار الدين ليس حضارة.

إنّ الملاحظ في هذه الأفعال الكلامية أنّها جاءت أفعالا إخبارية / وصفية / إثباتية، وقد جاءت منسجمة إلى حد بعيد، مع باقي الأفعال الكلامية الكبرى، فقد مثّلت أساسا البنية الكبرى (macro structure) التي تتحكم في انسجام الخطاب، بجميع الأفعال الكلامية، والبنى الجزئية الموجودة فيه، ولكي تنسجم البنية الكبرى مع البنى الجزئية علينا " أن نسلم بأن العبارات تترابط بفعل موضوع التحوار في مقطع خاص"¹⁸، وهذا المقطع مثّله الملفوظات

الأربع، وبالخصوص الملفوظ الإخباري الرابع " الدين ليس حضارة"، الذي يحمل قوة إنجازية مفادها أن لا علاقة للدين بمفهوم الحضارة، وإن كانت، فهي جزء من الكل، لا غير.

تنتج لدى المتلقي دلالة معينة عند سماعه مجموعة من الأفعال الكلامية المنسجمة على الشكل الآتي: "الحضارة أعم وأشمل من الدين، الحضارة تشمل الدين، الدين ينطوي تحت لواء الحضارة هو جزء من الكل"¹⁹، إن هذه الدلالة تتشكل عبر الفعل التأثيري الذي تمارسه المتكلمة، عبر استعمالها لعلاقة الجزء من الكل في نسج العلاقة بين مفهومين هما أساس البحث في التيارين الديني والعلماني، فالمتلقي الديني يفهم هذا الخطاب على أنه تقزيم لحجم الدين على حساب الحضارة وحط له، أما المتلقي العلماني، فهو يفهم أن الحضارة هي الأساس، وما الدين سوى تابع لها لا علاقة لها بالتطور الذي يحدث لأمة معينة.

يبدأ سلم البراهين في الارتفاع لدى وفاء سلطان بعد عرضها لتلك المعطيات والمقدمات المفاهيمية. وهذا يحدث عندما تشرع في الإجابة عن سؤال المقدم، إذ تقول: "ما نراه من صراع على الساحة الدولية ليس صراعا بين الأديان وليس صراعا بين الحضارات، إنه صراع بين النقيضين، إنه صراع بين زمنين، إنه صراع بين العقلية التي تنتمي إلى القرون الوسطى والعقلية التي تنتمي إلى القرن الواحد والعشرين"²⁰، حيث يمكن فهم الدلالة الحرفية لهذه الأفعال الكلامية في فعلها المتضمن في القول الأولي / الحرفي على أنه حجة أو برهان أو شرح لواقع المعيش بين الحضارة الغربية بصفة عامة والشرقية بصفة عامة، بين الديني واللا ديني، وهاته الدلالة الحرفية ظاهرة في الفعل الكلامي الوارد في بداية الملفوظ إذ ينفي ذلك الملفوظ عبر قوة إنجازية معينة دلالة الصراع الديني والحضاري، ويؤكد على وجود صراع على مستوى القوي والضعيف، صراع الخير والشر. لكن ألا يخالف هذا الصراع الذي شكله عقلية وأوليات ومقولات الحداثة الغربية التي تؤكد على مفهوم الاختلاف وتعدد الثقافات وتتنوعها.

في الحقيقة، هذا الموقف التي تنتهجه وفاء في هذا الخطاب هو موقف متمركز على الحضارة / الحداثة الغربية وقاتل للموروث الثقافي الشرقي، وهذا إقصاء للآخر يمارس في خطابها العلماني هذا. فإن كان الشرق الديني متخلف فما علاقة الغرب العلماني بذلك التخلف، وهل هو وصي على تقدمه وضرورة ازدهاره فكريا وثقافيا؟ إن هذه المسائل تستغل في الغرب لغرض استعماري اقتصادي تغطيه مجموعة من الخطابات الرنانة التي تخفي أنساقا من الطغیان على الآخر المفارق للهو.

ضرورة الاختتام في خطاب وفاء سلطان أدت بها إلى المبالغة في براهينها وأرائها لأجل التأثير في المتلقي / الآخر مما جعلها تقع في نوع من المصادرات والأحكام الجزافية عبر توظيف مجموعة من الأفعال الكلامية التي حوت على ثنائيات لطالما استند عليها الفكر الغربي في نظرتة الدنيوية إلى الشرق، تقول: "إنه صراع بين الحضارة والتخلف، بين المدنية والبدائية، بين الديمقراطية والديكتاتورية، إنه صراع بين الحرية والقمع، بين الديمقراطية والديكتاتورية، إنه صراع بين حقوق الإنسان من طرف واغتصاب تلك الحقوق من طرف آخر إنه صراع بين من يعامل المرأة، كبيمة، وبين من يعاملها كالإنسان"²¹ فملفوظ: إنه صراع بين الحضارة والتخلف، بين الحرية والقمع..... تحمل قوة إنجازية مفادها أنا الحق أنا المطلق²² وينتج من خلالها فعل تأثيري لدى المتلقي الديني (المؤمن بديانة سماوية معينة) على أنه على باطل، وعلى خطأ.

من ناحية أخرى، إن وفاء سلطان " تنطلق في خطابها هذا من مصادرات لم يُمهد لها لتنزل في العرف الشائع منزلة أحكام معترف بها أو يستند إلى براهين ثابتة يمكن الاطمئنان إليها مما يفقدها كل مشروعية ويقود إلى تهالويها، والحال أن هذا الضرب من التهم المرسلة يمكن أن يكون له تأثير في صورة المستهدف عند المتلقي"²³، إذ أنها انطلقت من مجموعة من الثنائيات المستهلكة و المنقودة أساسا.

إنّ الملفوظ الذي جعلته مركز الثقل في نسيج خطابها هو: "إنه صراع بين حقوق الإنسان من طرف واعتصاب تلك الحقوق من طرف آخر إنه صراع بين من يعامل المرأة، كبهيمة، وبين من يعاملها كالإنسان" يعدّ قفزا للآخر، بطريقة ضمنية، وكأنّ وفاء سلطان تقول أن العربي إنسان غرائزي حيواني وأنّ الإنسان الغربي العلماني ملائكي لا يملك غرائز، وهذه سمة من سمات التعالى الغربي والتمركز حول الذات.

ومن ثم، فإن قذف الآخر بالشتم-الضمنية والصريحة-والاطناب في إرسال التهم، وانتظامها في دوائر دلالية متضايقة-من منظور اللسانيات التداولية-كما هو الحال في هذا الحوار، قد يثيران لدى المتلقي الضحك، ويعملان على تقديم الضحك، ويعملان على تقديم الآخر في صورة ساخرة²⁴، وهذا ما أثر على إجابة إبراهيم الخولي من التيار الديني حيث لمسنا، كما سنرى لاحقاً، بعض التوتر الساخر في ردّه على وفاء سلطان.

لم تُؤفّق وفاء سلطان في اختيار الأفعال الكلامية المنسجمة مع الدلالة المنطقية التي خلقتها البنية الكبرى، التي تقول بعدم وجود صراع بين الدين واللادين أو بين الحضارة والاحضارة، حيث تقول هنا: "مانراه ليس

صراعا بين الحضارات، الحضارات لا تتصارع. الحضارات تتنافس، فهي تعكس أوجه التشابه أكثر مما تعكس أوجه الاختلاف. التفاوت في درجة الرقي هو سبب هذا الصراع"²⁵، فمن جهة، لا يوجد صراع، ومن جهة أخرى، يوجد صراع بين الرقي والتخلف. وإن كان كذلك ألا يسمى ذلك صراعا ؟ بلى أقول: يسمى صراعا، مهما كان نوعه أو درجته أو نسبته .

يبتدئ إبراهيم الخولي خطابه الذي جاء على شكل ردّ على الخطاب الموجّه إليه من طرف وفاء سلطان، والذي تقول بنيته الكلية أو قوته الإنجازية الشاملة أنّه لا وجود لأيّ صراع غربي علماني على العرب الديني بصفة عامة. ولهذا يحاول إبراهيم الخولي في خطابه أن يبرز كفاءته الأيديولوجية في ضبط المصطلحات والمفاهيم، وهذا ظاهر في ملفوظه الأول من حيث دلالة الفعل الإنجازية التي يحمله هذا القول-بعد البسملة - : "بداية أقول: ليس من حق أحد أن يحدد المفاهيم التي لا يستطيع فرد أن يستقلّ بتحديدّها وأن يفرضها"²⁶، وهو هنا يخلق فعلا تأثيريا لدى المتلقى العلماني عموما، ولدى ممثله وفاء سلطان على وجه الخصوص؛ مفاد هذا الفعل التأثيري أن ما تقول به وفاء سلطان لا يحتكم إلى منطق مضبوط، لعدم انضباط المفاهيم المستخدمة لبناء الاستدلالات والنتائج التي توصلت إليها عبر تلك الاستدلالات.

ولهذا يستعمل إبراهيم الخولي مجموعة من الأفعال الإنجازية التي يبتغي من ورائها ضبط المنظومة المفاهيمية والمصطلحية لبناء استدلالاته الذاتية ومحاولة تعميمها على الوقائع العامة التي يعيشها العالم اليوم، فيقول سائلا وفاء سلطان²⁷:

✓ ما مفهوم الحضارة عندك؟

✓ أي تعريف للحضارة؟

ويردّ القول مؤكدا على دلالاته الأولى، وهي ضرورة ضبط المصطلحات جيدا: "لا بد أن نبدأ بتحديد المصطلحات والمفاهيم"، وهنا نلاحظ تكرار الفعل التأثيري لدى المتلقي فهو تأكيد للمرة الثانية على أن المحاور معه لا يملك الحقيقة كما كان يدّعي سابقا وإنما هو واقع في أزمة مفاهيمية جعلته يميل إلى الاتجاه الأيديولوجي العلماني بإنكاره الصراع القائم بين الغرب والشرق. يواصل أسئلته، فيقول²⁸: ما الحضارة ؟ ما التقدم ؟ ثم يقدّم مسلمة مفادها "أن أي تقدّم يمكن أن ينتهي إلى تخلف إنساني، بكل معاني الكلمة" وهنا أساسا يقدم فعلا كلاميا إخباريا قوته الإنجازية أنّه لا يجب الانبهار بالتقدم لأنه في كثير من الأحيان يحال إلى التأخر والتدهور على مستوى القيم والمبادئ الإنسانية كما هو حاصل في الغرب المادي.

يوصل الأستاذ ابراهيم الخوري حديثه، موجها إياه، بطريقة صريحة إلى وفاء سلطان قائلاً لها: "يبدو أنك تخطئين بين الحضارة والثقافة"²⁹، فمفهوم الحضارة يرتبط أساساً بالجانب المادي المدني المستعمل في التكنولوجيا والتطبيق العلمي، أما مفهوم الثقافة فيرتبط بالجانب المعنوي ومجموعة العادات لشعب معين. يقول الخوري: "الحضارة تسخير قوى الطبيعة لخدمة الإنسان الحيوان، ولتقدم الإنسان الحيوان وليس لتقدم الإنسان الإنسان"³⁰. يتشكل عبر هذا الملفوظ فعل كلامي مفاده أن الحضارة ترتبط بالشق الحيواني/ الغرائزي للإنسان، وأن الثقافة ترتبط بالشق الروحي الملائكي للإنسان، وهذا يمكن أن يكون إلغاء للعلم بطريقة ضمنية، فليس العلم يخدم الجانب المادي فقط، بل قد يخدم الجانب الروحي عبر تسهيل الطرائق التي يكون فيها المتدين مرتاحاً أثناء تقرّبه من الله، وهنا نحن نقرب من فهم إدوارد سعيد باعتباره مفهوماً بنيوياً يتداخل مع مفاهيم أخرى، كمفهوم العلمنة أو بمصطلح إدوارد الدقيق: **الدنيوية**، وكذلك التاريخ، العالم، النص، اللغة، الأنسية، الهوية، الهجنة، الجوهرانية، والإسلام³¹.

من ثم، يرى الخوري أن الحضارات هي مادية لا دينية محايدة: "إذ لا تتعارض حضارة الصينيين مع حضارة الهنود، لكن الذي يحول الأمر إلى صراع، هم البشر من خلال الثقافة"³²، فكأن دلالة هذا الفعل الكلامي الإخباري مفادها أن الثقافة هي الأساس والمصدر الأول في قيام الحرب، وهذا في حثيئاته اتهام للدين بطريقة غير مباشر في قيام الصراع إن انطلقنا من تصورات الخوري التي يقول فيها أن الثقافة لها علاقة بالجانب المعنوي والديني. تظهر هذه الفكرة بطريقة صريحة في قوله: "الأمريكان أبادوا الهنود الحمر وهم أحسن منهم ثقافة. إن الغرب هو من يهاجم المسلمين وهم في موقف دفاع"³³، وهو هنا ينفي فعل الكلام الذي خلقته وفاء سلطان؛ الذي مفاده أن الصراع يدور بين الخير والشر، بين الأحسن والأسوأ، إذ لا علاقة للمثالي وبالديني، بقدر ما العلاقة محصورة في وجود مصلحة من عدمها. يؤكد الخولي على فعل القضية الذي تبناه في البدء، والذي مفاده أنّ هناك صراعاً للحضارات وللديانات قائم على أساس المصالح، وهذا يظهر في ملفوظه: "الأمريكان أذلوا الأفارقة، استعبدوهم، أفذلك حضارة؟ أفذلك تقدّم بالمعنى الإنساني، الحضارة، في النهاية، بشقها الثقافي، نمو في إنسانية الإنسان، في قيم الإنسان"³⁴، ولعل الشق الأخير من هذا الملفوظ يبيّن الموقف الأيديولوجي الشرقي الذي يتبناه، والمستند على الجانب الديني والروحي والثقافي في فهم خصوصيات الكون والمجتمعات.

يقدم، كذلك، سؤالاً ينحو منحى خطابه العام: "من المهيأ لفرض الصراع؟ والبدء به. المسلمون؟ كذب من يقول هذا. وهو هنا ينطلق من منطق فهم العلاقة بين الأشياء ليعرف ويميّز بين الحاكم والمحكوم، فهو يرى أن المسلمين في موقف المدافع لا المهاجم.

يرد على دعاة الحوار بين الغرب العلماني والشرق الديني بصورة مجازية، هي: "هذا الحوار يراد له ليكون حوار الحمل مع الذئب"، وهي تقدّم دلالة أبلغ من الحقيقة ذاتها رغم معارضتنا له في نفيه للحوار الذي تعتبره الباحثة والناقدة الجزائرية أمنة بلعلى المنهج الأمثل للتواصل، وذلك عبر الإقناع المتبادل، النائي عن المخاتلات والتلاعبات الخطابية. تقول أمنة بلعلى في تواصلية وحوارية القرآن الكريم: "إن الخطاب القرآني حقق فعل الإقناع بواسطة قوى أفعال الكلام المنجزة من خلال العبارات، وما تحقق بدورها من آثار ونتائج مهما كانت صفتها، فإن إيقاعها يبقى إقناع الآخر ليس من باب إحداث الغلبة لطرف على حساب الآخر، ولكن من أجل الحوار والتواصل"³⁵، وإن كان هذا البراديغم الحواري الذي تقدّمه الباحثة بلعلى ليس ما هو قائم في واقع وخطاب ندوات التسامح الديني، التي تظهر الغالب والمغلوب في مقام واحد بغرض المخاتلة وتضبيب الرؤى وخطط الموازين مؤقتاً، وربما بغرض فهم خصوصيات الآخر من أجل القضاء عليه لا فهمه من أجل استيعابه.

في الحقيقة، إن إبراهيم الخولي، كذلك بدوره، يقع في جزء من خطابه هذا، فيما سماها الكلام الإنشائي، وما نسميه نحن الجماليات الزائفة، والخواوية من أية قيمة أو فكر معرفي، حين بدأ يستعمل مجموعة من الأفعال الكلامية التي يمكن أن نصنفها في باب الوجدانيات أو المفاخرات، وهذا عندما قال (لاحظ الملفوظات الأخيرة من هذا القول): "حوارنا مع الغرب للأسف، لأننا لا نملك القوة المادية المكافئة لقوته لتردعه، إنّما يراد له أن يكون حوار الحمل مع الذئب، لكننا نحن المسلمين (والصحيح المسلمون) لن نكون حملانا على الإطلاق، مهما كان الخصم يملك من أساليب القوة، ومن أدواتها، لأنّ معنا من القوة المعنوية ما يفّل حديده، ويكسر سيفه، ويرد على أعقابه خاسراً وهو حسير"³⁶، فالملفوظ الأول يحيلنا إلى عملية عقلية منطقية أثناء إدراك علاقتنا نحن الضعفاء وبالعرب القوي، ولعل المجاز الذي مثل به يقدّم دوراً معرفياً في نقل هذه المعلومة بطريقة جمالية مع الحفاظ على جانبها المعلوماتي والأيدولوجي. ما يمكن أن نصنفه، كما قلنا، في خانة الوجدانيات أو المفاخرات الشوفينية، هي تلك الأفعال الكلامية الأخير في هذا الخطاب، والتي لا تحمل قيمة معرفية واقعية، لنسبة المجاز الطاعي عليها، إذ لا يمكن للقوة المعنوية بأية حال أن تقل الحديد، ولا أن تكسر السيف.

من ناحية ثانية، يردّ ابراهيم الخوري على وفاء سلطان في مسألة التخلّف بقوله: "لسنا متخلفين . من قال لك أننا متخلفون؟ هم متخلفون ماديا، متقدمون تكنولوجيا، لكن من قال لك أن هذا هو معيار الإنسانية؟ الإنسانية هي التي يتقدّم المسلمون بها بالقيم و المبادئ التي تفرزها.... إن هذه القضية قضية إنسانية بأسرها لا بد أن نضع الأمور في نصابها، بعيدا عن الإنشائيات وعن الدعاوى المغرضة وعن هذا الكلام المرسل الذي لا سند له، وعن هذا التردد، كالبيغاوات التي لا تع ما تقول"³⁷، إن الفعل الكلامي الأول، هو فعل إخباري وقوته الإنجازية فهي سمة أو دلالة التخلّف عن الشعوب العربية الإسلامية من الناحية الثقافية الإنسانية، من منظوره الأيديولوجي. خصوصا عندما يعمل نفس المنطق الذي يقيمه الغرب علينا في الحكم على أننا متخلفين، مع تعديل بسيط في المعيار، فالغرب ينظر إلينا على أننا متخلفون حضاريا؛ أي من الجانب المادي التكنولوجي، ونحن ننظر إليهم على أنهم متخلفون من الجانب الديني الروحي. وهنا نتساءل أين تتمحور دلالة التخلّف ؟ هل في الجانب الديني الروحي الثقافي؟ أم في الجانب المادي العلماني التكنولوجي؟ في الحقيقة، لا نستطيع أبدا أن نعزل بينهما أو نقيم بينهما فجوة، لأنّهما متكاملان من منظورنا وإن كان الدين واللادين يقعان في منطقة اللاتكامل لأنّهما أساسا متناقضين مبدئيا³⁸.

على سبيل الخاتمة:

إنّ بحثنا هذا، في البدء، جاء تركيزا على الافتتاحية الحجاجية -حول أهمية موضوع النقاش- التي قدّمتها فيصل القاسم لبرنامج، مع جزء مهم من الحوار، ولولا ضيق الوقت وكثرة الانشغالات في مقابل المدة الزمانية التي يستحقّها لكي نفي حقّه من النقاش والتحليل السليم. إذ اكتشفنا أنه يستلزم كتابا بأكمله من أجل تحليل ما يقارب ساعة من الحوار والحجاج الدائر بين تيارين متنازعين؛ يدعيان أنّهما مصدرا الحقيقة، وأنّ الآخر على باطل لا غير. من أهم النتائج التي تحصلنا عليها في هذا البحث أن الكفايات تتعاقد فيما بينها لتندافع عن الأطروحة التي أراد المرسل إيصالها إلى المتلقي والمتمثلة في أهمية طرح مثل هذه المواضيع من أجل الكشف عما هو خلف ستار المؤتمرات الدينية التي تدعو إلى حوار الأديان، مما قد يثبت أصلا بوجود صراع فيما بينها.

كذلك، من أهم الملاحظات التي لاحظناها في طبيعة الخطاب وريتم الحجاج، هي أنّ كلا الاتجاهين يقصي الآخر بطريقة ضمنية أو صريحة، مدّعيًا أنه مالك للحقيقة الكلية الشاملة، ولهذا كان هنالك تناقض واضح في حيثيات الخطابين، وخروج نوعي عن موضوع الحوار وارتباطاته الكلية، فمرة

تقول وفاء سلطان بوجود الصراع الحضاري والديني ومرة تقول بعدم وجودهما، كما أن إبراهيم الخولي وقع في نفس التناقض، حيث يقول مرة أن الحضارة سبب الصراع، فينتقدها لأنها مادية وحيوانية وغرائزية، ومرة يرجع الصراع إلى الثقافة، التي اعتبرها الجزء الإنساني في الحضارة المادية. لكن رغم كل هذه التناقضات التي تحدث أحيانا في بعض حيثيات الخطاب، إلا أنه يمكن القول أن الأفعال الكلامية التي استعملت لدى المُقدم، والمُحاورين جاءت منسجمة إلى حد بعيد، ومناسبة للضرورة الحجاجية التي يفرضها مقام التواصل التلفزيوني.

الهوامش:

- 1 - بدأت ملامح الفكر العلماني مع بداية القرن الثامن عشر مع الاضطهادات والممارسات القمعية التي كانت تمارسها الكنيسة، إلا أن هذا لا يعني أن ملامح فكر لا ديني لم تكن معروفة منذ القديم.
- 2 - تجدر بنا الإشارة إلى أنه في تحليلنا للافتتاحية استندنا إلى طريقة تحليل محمد نظيف لمجموعة من البرامج التلفزيونية، وقد خرجنا عن هذه الطريقة أثناء تحليلنا للمتن الحوار وحاولنا أنس نؤسس لبراديجم بحثي يفك شيفرة الحوارات السجالية مستندين إلى أطروحة العجيمي.
- 3 - ينظر: محمد نظيف، الحوار وخصائص التفاعل التواصل، دراسة تطبيقية في اللسانيات التداولية، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، 2010، ص 68.
- 4 - ينظر: برنامج الاتجاه المعاكس، الدقيقة: 00:44.
- 5 - ينظر: برنامج الاتجاه المعاكس، الدقيقة: 00:54.
- 6 - جون لانشو وأشتين، القول من حيث هو فعل، نظرية أفعال الكلام، ط.2، ترجمة: محمد يحياتن، عالم الكتب للنشر والتوزيع، تيزي وزو، 2001، ص 125.
- 7 - إن مفهوم البؤرة حسب سيمون دايك " يقوم أساسا على فكرة أن وظيفة البؤرة تستند إلى المكون الحامل للمعلومة الأكثر أهمية أو الأكثر بروزا في الجملة"، ينظر: أحمد المتوكل، الوظائف التداولية في اللغة العربية، ط.1، دار الثقافة الدار البيضاء، 1985، ص 28.
- 8 - ينظر: برنامج الاتجاه المعاكس، الدقيقة: 05:32.
- 9 - ينظر: برنامج الاتجاه المعاكس، الدقيقة: 05:49.
- 9 - الأفعال الإنجازية / الإنسانية هي التي ننجز بها، في ظروف ملائمة، أفعال أو توديعها، ولا توصف بصديق ولا كذوب، بل تكون موفقة أو غير موفقة، ويدخل فيها، إلى جانب السؤال، الاعتذار،

النصح، الوعد. وسنرى مدى توفيقها أعلاه. ينظر: أحمد محمود نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص44

10 - برنامج الاتجاه المعاكس، الدقيقة: 06:04.

11 - نحن نتحدث هنا عن العالم الديني بمعنى مجموعة الدول التي تستند على قوانين دينية لضبط تعاملات الأفراد الاجتماعية والسياسية وحتى الاقتصادية.

12 - Voir : michel mayer, langage et argumentation, edition hachette, paris France, p136

13 - Voir : ibid, p 136.

14 - برنامج الاتجاه المعاكس، الدقيقة: 06:10.

15 - برنامج الاتجاه المعاكس، الدقيقة: 06:26.

16 - برنامج الاتجاه المعاكس، الدقيقة: 06:35.

17 - برنامج الاتجاه المعاكس، الدقيقة: 06:31.

18 - فان دايك، النص والسياق، استقصاء البحث في الخطاب الدلالي، ترجمة: عبد القادر قنييني، أفريقيا الشرق المغرب ولبنان، 2000، ص205.

19 - برنامج الاتجاه المعاكس، الدقيقة: 06:48.

20 - ينظر: برنامج الاتجاه المعاكس، الدقيقة: 07:00.

21 - برنامج الاتجاه المعاكس، الدقيقة: 07:14.

22 - ينظر: فهم عبد الله الغدامي لهذه الفكرة وتجلياتها في الثقافة العربية على الرغم من وجودها في ثقافة الغرب المؤسس على مجموعة من الثنائيات الضدية، هذا كله في كتابه: النقد الثقافي، قراءة في الأنساق الثقافية العربية، ط.1، المركز الثقافي العربي، المغرب وبيروت، 2000، ص278. لقد أشارت كذلك الباحثة كدير ليندا وكانت هذا البحث في فهمها لخطاب مابعد النسوية إلى هذه الثنائيات الضدية، ومدى خطورة توظيفهما على صعيد فهم نظام الجندر بين الرجل والمرأة، فقد ألغت ما بعد النسوية- المستندة أساسا على فلسفة المابعد- جميع هذه الثنائيات وفسحت المجال للاختلاف لا الخلاف في إطار التمايز القائم بين الرجل والمرأة. كذلك هنا يمكن أن نطرح هذه المسئلة المابعدية في الخطاب الديني العلماني، إذ لا يعني الخلاف الموجود بينهما التصادم التام بل يعني وجوب فهم علاقاتهما في إطار الاختلاف المابعدي. ينظر: مقال نبيل محمد صغير وكدير ليندا، إشكالية الهوية والمساواة والمابعد في فلسفة مابعد النسوية، ضمن الكتاب الجماعي: المابعديات (مخطوط)، تحت إشراف د.علي عبود المحمداوي.

- 23 - محمد الناصر العجيمي، اجتياز الحدود في مسالة مفهوم الخطاب السجالي، ط.1، المغاربية لطباعة وإشهار الكتب تونس، 2010، ص 11.
- 24 - ينظر: محمد الناصر العجيمي، اجتياز الحدود في مسالة مفهوم الخطاب السجالي، ص52.
- 25 - برنامج الاتجاه المعاكس، الدقيقة: 08:00.
- 26 - برنامج الاتجاه المعاكس، الدقيقة: 08:25.
- 27 - ينظر: برنامج الاتجاه المعاكس، الدقيقة، 08:40.
- 28 - ينظر: برنامج الاتجاه المعاكس، الدقيقة: 08:40.
- 29- برنامج الاتجاه المعاكس، الدقيقة: 09:11.
- 30 - برنامج الاتجاه المعاكس، الدقيقة: 09:33.
- 31 - ينظر: بشير ربح، الدين من منظور إدوارد سعيد، من النص الديني المتعالي، إلى النص الدنيوي التاريخي، في الكتاب الجماعي، فلسفة الدين مقول المقدس بين الإيديولوجيا واليوتوبيا وسؤال التعددية، منشورات ضفاف، دار الأمان، منشورات الاختلاف، لبنان، المغرب، الجزائر، 2012، ص380.
- 32 - ينظر: برنامج الاتجاه المعاكس، الدقيقة: 10:05.
- 33 - ينظر: برنامج الاتجاه المعاكس، الدقيقة: 10:30.
- 34 - برنامج الاتجاه المعاكس، الدقيقة: 10:46.
- 35 - آمنة بلعلي، "الإقناع المنهج الأمثل للحوار. نماذج من القرآن والحديث النبوي" مجلة التراث العربي، دمشق، العدد 89، السنة الثالثة والعشرون، مارس، 2003، ص 206.
- 36 - ينظر: برنامج الاتجاه المعاكس، الدقيقة: 11:33.
- 37 - ينظر: برنامج الاتجاه المعاكس، الدقيقة: 12:55.
- 38 - يقدّم علي عبود المحمداوي، قراءة نقدية لمشروع هابرماس الفلسفي ليؤكد على مفهوم المجتمع المابعد العلماني الذي فهمناه على أنه منطقة وسطى بين الدين واللادين، مؤكداً على ضرورة تجاوز العنف المضاد من السياسة العلمانية التي تهدف إلى الإقصاء والتهميش للفكر الديني. ينظر علي عبود المحمداوي، هابرماس والمسألة الدينية، الوضع الديني في المجتمع مابعد العلماني، في الكتاب الجماعي، فلسفة الدين مقول المقدس بين الإيديولوجيا واليوتوبيا وسؤال التعددية، منشورات ضفاف، دار الأمان، منشورات الاختلاف، لبنان، المغرب، الجزائر، 2012، ص 344.